الجزء الاول من الرواية «تصنان» يعالج مرحلة الخروج، ثم ما أعقبها في الداخل والخارج، مع التركيز على لبنان وبيروت منه بالذات. في هذا الجزء تفاصيل أحسن اختيارها، لتؤدي ما يطلب منها قصصيا، وبلغة عادية، لا مجال فيها لرقص أو عرض عضلات. لقد حاول الكاتب، هنا، الوصول إلى الآخرين، دون إسفاف، وهو أمر يلغي المقولة التي «يتلطى» وراءها بعض الكتاب الذين تعوزهم أدوات الفن، فيلقون إلينا بسقط المتاع، بحجة الوصول إلى الآخرين. فاذا نتاجهم منشورات تعيسة، حافلة بكل ضحل ومجوج.

حيدر استطاع، هنا، أن يكتب للآخرين، دون أن يضحي بأصول الفن القصصي، وهذا، بحد ذاته، إنجاز طيب.

ثمة أخطاء مرعبة أحيانا، على صعيد اللغة، هي ولا شك، ناجمة عن التصحيح أو الطباعة، لأن الكاتب، عرفناه دائما، متمكنا من اصول اللغة، لدرجة كثيرا ما أخذنا عليه، اغراقه في مساربها... إلا أنه أمر لا بد من ملاحظته، رغم أننا جميعا، طالما عانينا منه الأمرين.

أيضا هناك بعض المفارقات، أو ما يشبه الاخطاء، على صعيد المعلومات، والتي يبدو أن الكاتب لم يدققها كثيرا. فعلى سبيل المثال، فقد جاء في الرواية عن الشيخ فرحان السعدي ص٦٢: «لقد أعدموا الشيخ فرحان السعدي، وهو ابن ثمانين عاما، لانه يحتاز بندقية قديمة كانت معلقة على جدار غرفته».

والحقيقة أن السعدي، واحد من أبرز رفاق القسام، وقد حاول بعد استشهاد رفيق سلاحه أن يقوم بانتفاضة مسلحة في منطقة نابلس وطولكرم. إلا أن انقطاع الامدادات عنه، في الاردن وسوريا، نتيجة لاتصالات تمت بين الانجليز والفرنسيين تلك الأيام، واضطراره إلى الاخذ بأسلوب الاغتيال السياسي لارهاب الأعداء، أدى الى ضياع ما قام به. خاصة وانه كان ابن ثمانين عاماً فعلاً، وكان عليه أن يقود ويدرب ويقاتل وهو في تلك السن؛ مما أوهن جسده. «لقد أجهزوا عليه، ذلك الشيخ الطيب الجليل، فاجأوه في فراش العلة، وحوله نفر قليل من صحبه، وقد عذبوه طويلاً، ليعرفوا أسماء تنظيمه ومصادر امداداته، فلم يبح بحرف واحد. واقتادوه إلى ساحة الاعدام وهو شبه جثة». (عز الدين القسام، طبعة ثانية، دار الطليعة).

إذن، قضية البندقية القديمة المعلقة على جدار غرفته، لا يجوز أن تختصر حياة، انسان كالسعدي، بهذه السهولة.

في واقعة الهجوم على حيفا سنة ١٩٤٨، جاء في الصفحة ٣٤ أن «اليهود» زجوا بخمسة عشر ألف مقاتل. ثم يحكي عن قصف المدينة بالمدفعية، في الوقت الذي كانت تجري فيه معارك عنيفة بالسلاح الابيض بين الصهيونيين والمدافعين عن المدينة.

وتقديرنا أن العدد مبالغ فيه. لانه لم تكن لدى الطرفين في تلك الايام، أعداد كبيرة كهذه حتى يزجوا بها في معاركهم. كما أن عملية قصف العدو للمدينة بالمدفعية، في الوقت الذي كان يلتحم فيه في معركة شوارع، وبالسلاح الأبيض، مع المجاهدين، عملية تلغيها أبسط القواعد العسكرية، لان المدفعية في مثل هذه الحالة لا بد وأن تصيب المدافع والمهاجم معا. ومن المعروف أن المدفعية تمهد للهجوم، وتسكت حين يبدأ الالتحام.

وفي الصفحة ٤١ يقول الكاتب: «عبد القادر، وهو جريح، قطع الجبال والفيافي في الشام، حتى وصل إلى فلسطين... واستشهد». عبد القادر، حين ذهب من دمشق إلى القدس، ثم في اليوم التالي إلى القسطل لم يكن جريحاً اطلاقا. لقد جرح قبل ذلك بعشرة أعوام، وغادر جريحاً إلى الشام ومن بعدها إلى بغداد... إلى آخر سيرته.

طبيعي، أن مثل هذه «الهنات الهينات» لا تلغي جمال الاسلوب والصور المفعمة بالرقة، التي تتتالى بين هذه وتلك.